المبحث الثاني

سياسة الخلفاء مع غير المسلمين وقت الحرب من خلال خطبهم

obeikandl.com

obeikandl.com

مدخل

لقد تعاملت الدولة في عهد الخلفاء مع غير المسلمين وقت الحرب وفق المبادئ التي وضحتها الشريعة الإسلامية ، وقامت سياسة الخلفاء مع غير المسلمين وقت الحرب على ركائز يمكن إجمالها فيما يأتي :

١ـ دعوتهم إلى الإسلام قبل القتال :

قامت سياسة الخلفاء مع غير المسلمين وقت الحرب على هذه الركيزة الهامة ، فكانوا لا يأخذون العدو على غرة ، بل يخير بين الإسلام أو العهد أو القتال . فإن أسلموا فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، وإن لم يسلموا عرض عليهم العهد على أساس إقامة الحق ومنع الملوك أن يظلموا رعيتهم ، وأن يفتحوا الطريق للدعوة الإسلامية بأن تصل إلى الناس . ثم الناس أحرار فلهم أن يدخلوا في الدين أو لا ، وأن يدفعوا الجزية في حال عدم دخولهم في الدين مقابل حمايتهم والدفاع عنهم ، فإن رفضوا فالقتال .

وقد ظهرت هذه السياسة في خطب الخلفاء . فهذا الصديق يقول في خطبة له وهو يودع جنوده وقادته : «أوصيكم بتقوى الله ، اغزوا في سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، فإن الله ناصر دينه ، ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تجبنوا ، ولا تفسدوا في الأرض ، ولا تعصوا ما تؤمرون . فإذا لقيتم العدو من المشركين إن شاء الله فادعوهم إلى ثلاث خصال ، فإن هم أجابوك فاقبلوا منهم وكفوا عنهم ، ادعوهم إلى الإسلام فإن هم أجابوك فاقبلوا منهم وكفوا عنهم ، ثم ادعوهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، فإن هم فعلوا فأخبروهم أن لهم مثل ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ، وإن هم دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم على دار المهاجرين فأخبروهم أنهم كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي فرض

على المؤمنين وليس لهم في الفيء والغنائم شيء حتى يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا أن يدخلوا في الإسلام فادعوهم إلى الجزية ، فإن هم فعلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم وإن هم أبوا فاستعينوا بالله عليهم فقاتلوهم إن شاء الله ولا تعقرن نخلا ولا تحرقنها ، ولا تعقروا بهيمة ولا شجرة تثمر ، ولا تهدموا بيعة ، ولا تقتلوا الولدان ولا الشيوخ ولا النساء ، وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، وستجدون آخرين اتخذ الشيطان في رؤوسهم أفحاصا فإذا وجدتم أولئك فاضربوا أعناقهم إن شاء الله»[١] .

وهذا الفاروق حينما كان يودع جيشه يخطبهم فيقول : «سر باسم الله ، قاتل في سبيل الله من كفر بالله ، فإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى ثلاث خصال ، ادعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا فاختاروا دارهم فعليهم في أموالهم الزكاة وليس لهم في فيء المسلين نصيب ، وإن اختاروا أن يكونوا معكم فلهم مثل الذي لكم وعليهم مثل الذي عليكم ، فإن أبوا فادعوهم إلى الخراج ، فإن أقروا بالخراج فقاتلوا عدوهم من ورائهم وفرغوهم لخراجهم ولا تكلفوهم فوق طاقتهم ، فإن أبوا فقاتلوهم فإن الله ناصركم عليهم ، فإن تحصنوا منكم في حصن فسألوكم أن ينزلوا على حكم الله وحكم رسوله فلا تنزلوهم على حكم الله ، فإنكم لا تدرون ما حكم الله ورسوله فيهم ، وإن سألوكم أن ينزلوا على ذمة الله وذمة رسوله فلا تعطوهم ذمة الله وذمة رسوله ، وأعطوهم ذمم أنفسكم ، فإن قاتلوكم فلا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا»[٢] .

لقد كانت سياسة الخلفاء مع المحاربين دعوتهم إلى الإسلام قبل النزال ، فالقتال

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٨٥) رقم ١٧٩٠٤ ، ك الجهاد ، باب من اختار الكف عن القطع والتحريق إذا كان الأغلب أنها ستصير دار إسلام أو دار عهد ، وكنز العمال ، رقم ١١٤٠٨ .

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٥٥٧) .

في الإسلام ليس شهوة ولا صنعة وإنما هو الدواء وآخر الدواء الكي . وهذا بيان للعدو أنه ما جاء لسفك الدماء ، ولا لاغتصاب البلاد ، وإنما جاء لإزاحة الطواغيت حتى يكون الشعب حرا في الاختيار والتفكير ، ورفع الغشاوة والظلم عن الشعوب .

ولهذا كان القادة في عهد الخلفاء ﷺ يقودون جيوش المسلمين إلى الجهاد يدعون العدو إلى الإسلام ، فإن أسلموا فهم مسلمون عليهم حمايتهم ، وهم إخوانهم في الدين ، وإن لم يسلموا عرض عليهم العهد على أساس إقامة الحق ومنع الملوك من أن يظلموا رعيتهم ، وأن يفتحوا الطريق للدعوة الإسلامية ، فإن رفضوا فالقتال[١] .

فالإسلام يدعوا إلى السلام ونبذ الحروب والمصادمات وذلك من خلال تقديم الدعوة إلى الله قبل القتال . وما اتجه المسلمون في عهد الخلفاء إلى هذه البلاد إلا لتحقيق الغاية الأساسية وهى تقرير مبدأ العبودية لله سبحانه وتعالى ، ودعوة غير المسلمين إلى نبذ عبادة الشرك والبشر الممثلين في قادة الفرس والروم . وبذلك استطاع المسلمون اتباع الطرق السلمية في دعوتهم للفرس والروم . فالعامل الحقيقي لخروج المسلمون لحرب العدو هو نشر الدعوة الإسلامية«وكل منصف يتتبع ما كان يقدمه قواد الجيوش الإسلامية بين أيديهم من الدعوة إلى الله قبل الالتحام بأعدائهم يدرك ذلك بيسر»[٢] .

فلم يكن الجهاد للاستيلاء والغلبة ، ولكنه لحماية نشر الدعوة ، وردع من يقف في وجهها أثناء انسياجها في أرض الله لنشر الخير في الأرض ، وتعبيد الناس لرب العالمين وتطهير الأرض من الشرك والوثنية ، «ولذلك كان الفتح كسرا للحواجز المادية التي يحاول أن يقيمها الحكام والأباطرة والأمراء أصحاب السلطة في الأقطار

(١) الدعوة الإسلامية أبو زهرة صـ ٦٩ – ٧٠ بتصرف .

(٢) الخلفاء الراشدون صـ ٦٧ ، د/ أبو زيد شلبي ، مكتبة وهبه ، ١٩٩٦م .

التي ينفذ إليها الإسلام رغبة في تحقيق اللقاء بين الإسلام وبين هذه الشعوب المغلوبة على أمرها الغارقة في الظلم الاجتماعي والوثنية ، ولذلك استقبلت هذه الشعوب الإسلام بغبطة كبيرة وتقدير»[١] .

والإسلام حريص على هداية الناس أجمعين بالحجة والإقناع لا بالإجبار والإكراه ، كما أنه في جهاده للمشركين لا يعلن حرب قتل وإبادة ، وإنما يدفعهم إلى الهداية دفعا ، ولا يحارب الإسلام المشركين الأفراد الذين لا يربطهم تجمع جاهلي يعادي الإسلام ، وإنما حربه موجهة إلى أئمة الكفر في كل زمان ومكان الذين يصدون عن سبيل الله ويمنعون الأفراد من سماع كلام الله بالترغيب والترهيب لذلك قال تعالى : ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِۙ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة:١٢][٢] .

فالقتال شرع في الإسلام «للدفاع عن الإسلام ونشر لوائه ، فهو دعوة خالصة وسيلتها الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالحسنى ، فإذا فرض العدو المعركة ووقف في طريق الدعوة كانت الحرب ، وهي في مفهومها تقوم على أساس غاية في الرحمة والعدل»[٣]

فالفتوحات لم يكن فيها اضطهاد ديني أو نهب ثروات ، أو إبادة الشعوب ، أو استغلالها واسترقاقها ، أو فرض نظم مستبدة عليها ، أو طمس معالم تراثها وحضارتها ، أو ما شاكل ذلك مما قاست منه دول وشعوب كثيرة[٤] .

ولما كان هدف الخلفاء من الحرب هدفًا ساميًّا قدموا الدعوة قبل القتال . كتب

---

(١) تاريخ الإسلام ، أنور الجندي (٢/ ٣٩) .

(٢) مباديء الإسلام ومنهجه صـ ١٠٢ بتصرف .

(٣) تاريخ الإسلام (٢/ ٤١) .

(٤) وحدة العلاقات الخارجية في الإسلام صـ ١٨١ .

خالد إلى أهل المدائن كتابا جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد إلى مرازبة [١] فارس أما بعد : فأسلموا تسلموا ، وإلا فاعتقدوا مني الذمة وأدوا الجزية ، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر»[٢] .

فتقديم الدعوة على القتال هو دليل على أن أصل العلاقة بين المسلمين وبين غيرهم هو السلم ، فإذا دخل هؤلاء الإسلام أصبحوا مسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وهذا هو الهدف الأول من الفتوحات ، فإذا تحقق فلا حرب ولا عداوة ولا تقتيل ، بل سلام ومحبة . لذلك أكد النبي ﷺ في أحاديثه ووصاياه لقادة الجيوش ، وكذلك الخلفاء ﷺ أكدوا هذا المبدأ وهو تقديم الدعوة إلى الإسلام قبل القتال وعلي القتال .

فلو تحقق ما تهدف إليه الدولة الإسلامية من إسلام الأمم الأخرى أو دخولها تحت لواء الدولة الإسلامية ، حيث لا يظلم أحد من رعاياه ويتحقق للناس الأمن والأمان ويعرفوا بالإسلام ثم هم أحرار في معتقداتهم ، فقد تجنبت الدولة عناء الحروب وآثارها المدمرة . ومع كل هذا فإن «الإسلام لا ينكر الحرب كظاهرة اجتماعية ولكنه يعمل على تهذيبها تهذيبا من حيث الحوافز التي تدعو إليها ومن حيث الأسلوب الذي تسلكه ، فالحرب في الإسلام واقع مسلم به ، ولكنها لدفع الشر واجتناب الفساد وإعلان الحق على الباطل ، وقد شرع الله ﷻ الحرب للدفاع عن النفس وحماية العقيدة وحرية الدعوة ، وليست شرعة للعدوان والبغي : ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٩٠] [٣] .

---

(١) المرزبان : جمع مرازبة ، وهو الرئيس عند الفرس ، وهي كلمة فارسية . المنجد في اللغة والأعلام ، ص٢٥٧ ، دار المشرق ، ط/ ٢٥ .

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٣٢١) .

(٣) الإسلام والسياسة صـ ٢٦٩ ، د/ حسين فوزي النجار ، مطبوعات الشعب ، ١٩٧٧م .

فلقد كان هدف جيوش المسلمين أن تصل الدعوة إلى كل مكان لينتشر نور الإسلام على الكرة الأرضية كلها ، ولم يكن غرضهم التوسع والسيطرة فكانت الدعوة قبل القتال .

٢ـ الشدة والغلظة على الكافرين المحاربين المعاندين :

كانت سياسة الخلفاء ﷺ مع غير المسلمين ممن أظهر العداوة للإسلام والمسلمين وأبى فتح الطرق لتبليغ دعوة الله عز وجل للناس الشدة على هؤلاء المحاربين الكافرين ومقاتلتهم وإزاحتهم من طريق تبليغ الدعوة إلى الناس أجمعين . وقد بين الخلفاء ذلك للرعية في خطبهم . فهذا الصديق لما ارتدت قبائل عن الإسلام وأدعى بعض الناس النبوة ومنع بعضهم الزكاة ، كانت سياستهم مع هؤلاء الشدة عليهم ومحاربتهم ، فلما كانت الردة قام أبو بكر في الناس خطيبا فكان مما قال :«إن من حولكم من العرب منعوا شاتهم وبعيرهم ولم يكونوا في دينهم ، وإن رجعوا إليه أزهد منهم يومهم هذا ، ولم تكونوا في دينكم أقوى منكم يومكم هذا على ما قد تقدم من بركة نبيكم ﷺ ، وقد وكلكم إلى المولى الكافي الذي وجده ضالا فهداه وعائلا فأغناه ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، والله لا أدع أن أقاتل على أمر الله حتى ينجز الله وعده ويوفي لنا عهده ، ويقتل من قتل منا شهيدا من أهل الجنة ، ويبقى من بقي منها خليفته وذريته في أرضه ، قضاء الله الحق ، وقوله الذي لا خلف له ، ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥] (١) .

وقد تكلم بعض الصحابة ﷺ مع الصديق ﷺ في أن يتألف مانعي الزكاة ولا يحاربهم حتى يتمكن الإيمان بقلوبهم ثم هم بعد ذلك يزكون ، فبين الصديق وأعلن

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٤٣) .

منهجه مع المرتدين الكافرين الشدة عليهم فقال الصديق ﷺ :«والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها . قال عمر : فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق»(١) .

وقد سار الخلفاء ﷺ في سياستهم على منهج القرآن حين حث القرآن على مقاتلة الكافرين والشدة عليهم ، وبين الغاية من الجهاد فقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:١٢٣] ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٩٣] ، ﴿فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء:٧٤] ، ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦] إلى غير ذلك من الآيات .

وقد انتهج الصديق ﷺ سياسة الشدة مع المعاندين ، واستطاع أن يقضي على حركة الردة التي شملت أنحاء الجزيرة العربية واستقرت الدولة داخليا ، ثم اتجه بجيوشه خارج حدود الدولة الإسلامية لتأمينها ضد الهجمات الخارجية ، وباتت حركة الفتح الإسلامي تأخذ في الامتداد خارج الجزيرة العربية .

وفي عهد الفاروق انتهجت الدولة أيضا منهج الشدة على الكافرين المحاربين وهو أمر لازم بعد رفض الطواغيت دعوة المسلمين وبيانهم الذي شرحوا فيه دينهم ، وتحركت الجيوش تؤدي مهمتها في غير بغي ولا عدوان ، واتجهت اتجاهين إلى فارس وإلى الشام ومصر ، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية وانحسرت السيطرة

(١) رواه البخاري في صحيحه ، ك استتابة المرتدين المعاندين وقتالهم ، باب قتل من أبى قبول الفرائض وما نسبوا إلى الردة ، رقم (٦٩٢٤) .

الفارسية والرومانية ، وكانت الفتوحات على قدم وساق ، وانتشر الإسلام وعم أرجاء الأرض المعمورة ، وانكسرت أعتى قوتين على وجه الأرض قوة فارس وقوة الروم .

وبهذه السياسة «وصلت الدعوة الإسلامية في عهد عثمان بن عفان ﷺ إلى أماكن بعيدة وامتد نفوذها وانتشر خيرها في الآفاق وتوالت الانتصارات في عهده ، وتم تأمين الثغور الإسلامية بالجيوش والمرابطين . وكانت خطة عثمان ﷺ في الفتوحات تتسم بالحسم والعزم والشدة ، وقد أخضع المتمردين من الفرس والروم وأعاد سلطان الإسلام إلى هذه البلاد ، واستمر الجهاد والفتوحات في عهده فيما وراء هذه البلاد ، وأقام قواعد ثابتة يرابط فيها المسلمون لحماية البلاد الإسلامية ، وأنشأ قوة بحرية عسكرية لافتقار الجيش الإسلامي إلى ذلك . وأنشأ المعسرات التي تقوم بحماية دولة الإسلام ومواصلة الفتوحات ونشر الإسلام»[(١)] .

وبهذه السياسة أصبحت الدولة الإسلامية مرهوبة الجانب في نفوس الأمم الأخرى وذلك بتحقيق الانتصارات بمواصلة الجهاد في سبيل الله ،«حيث اتجهت الدولة إلى أطراف الإمبراطورتين في وقت واحد ، وفي معركة زمنية واحدة ، وكان ذلك من علامات القوة ، وتوالت الانتصارات حاسمة متتابعة في كلا المعسكرين وبرزت بطولات رائعة ، وأعطت هذه العمليات الحربية صورة رائعة لتطبيق مفهوم الإسلام وانصهاره في نماذج حية رباها الرسول وكونها خلال كفاح طويل»[(٢)] .

وبهذه السياسة سياسة الشدة على الكافرين المعاندين المحاربين بسط لواء العدل على الديار المفتوحة بعد إزالة الحكام الطواغيت ، ونشر الأمن والطمأنينة بين أهالي تلك البلاد ، وأحس الناس بالفرق بين دولة الحق ودولة الباطل ، وعلم الناس أنه لم

---

(١) تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان صـ ٥٠٣ .

(٢) تاريخ الإسلام (٢/ ٤٠) باختصار .

يذهب جبار ظالم ليحل مكانه من هو أشد منه أو مثله في ظلمه وجبروته ، وإنما ذهب جبار ظالم وحل مكانه عادل مقسط هدفه نشر الأمن والطمأنينة ، وإقامة العدل والإحسان إلى المغلوب ، وحافظ المسلمون الفاتحون على الإنسان والعمران فشاهدت البلاد المفتوحة نمطا جديدا في ذوق رفيع وإنسانية صادقة ، فقام ميزان الشريعة بين الأمم المغلوبة بالقسط ، وانتشر نور الإسلام فأخذ يعد له مجامع القلوب ، فسارعت الشعوب إلى اعتناق هذا الدين والانضواء تحت لوائه ، وكان جند الأعاجم من الفرس أو الروم إذا وطئوا أرضا دنسوها ، ونشروا فيها الرعب والفزع وانتهكوا الحرمات الأمر الذي عانى منه الناس الويل والثبور ، وتناقلت الأجيال قصصه المرعبة والمفزعة جيلا بعد جيل وقبيلا إثر قبيل ، فلما جاء الإسلام ودخل جنده هذه الديار ، فإذا بالناس يجدون العدل يبسط رداءه فوق رؤوسهم ويعيد إليهم آدميتهم التي انتزعها الظلم والطغيان .

وهكذا يظهر أن من سياسة الخلفاء مع غير المسلمين المحاربين الشدة والغلظة عليهم ، وإزالة الطغاة وفتح الأبواب أمام الشعوب لترى وتشاهد نور الإسلام بعد أن أزيل الظلم عن الناس ، وتركوهم أحرارا ولم يكرهوهم على شيء .

٣ـ قبول الإسلام ممن أسلم من المحاربين وتحريم قتلهم :

كانت سياسة الخلفاء مع المحاربين الكافرين قبول الإسلام ممن أسلم منهم وتحريم قتلهم ، فليس الهدف من القتال هو التحكم في رقاب العباد وأموال البلاد ، بل الغرض أن تصل الدعوة إلى الناس أجمعين ، وينتشر نور الإسلام في كل مكان ويدخل الناس في دين الله أفواجا ، لذلك كانت من سياسة الخلفاء مع غير المسلمين المحاربين قبول الإسلام منهم وحفظ دمائهم وأموالهم . وقد ظهرت هذه السياسة في خطب الخلفاء ﷺ وفي سيرتهم العملية .

قال الصديق ﷺ في خطبته وهو يوصي جنوده بهذه المعاني : «فإذا لقيتم العدو

من المشركين إن شاء الله فادعوهم إلى ثلاث خصال : فإن هم أجابوك فاقبلوا منهم وكفوا عنهم ، ادعوهم إلى الإسلام فإن هم أجابوك فاقبلوا منهم وكفوا عنهم ، ثم ادعوهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، فإن هم فعلوا فأخبروهم أن لهم مثل ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ، وإن هم دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم على دار المهاجرين فأخبروهم أنهم كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي فرض على المؤمنين ، وليس لهم في الفيء والغنائم شيء حتى يجاهدوا مع المسلمين»[(١)] . وهذا الفاروق ﷺ يوصي رعيته بنفس المضمون ، فيقول في خطبته : «فإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى ثلاث خصال : ادعوهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا فاختاروا دارهم فعليهم في أموالهم الزكاة وليس لهم في فيء المسلين نصيب ، وإن اختاروا أن يكونوا معكم فلهم مثل الذي لكم وعليهم مثل الذي عليكم»[(٢)] .

فمن أهداف القتال إسلام غير المسلمين عن رضا وحب ، لذلك قال النبي ﷺ لهرقل عظيم الروم : «**أَسْلِمْ تَسْلَمْ وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ الله أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ**[(٣)] ، ﴿**يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ**﴾ [آل عمران:٦٤]»[(٤)] .

---

(١) سنن البيهقي الكبرى ، ك السير ، باب من اختار الكف عن القطع والتحريق إذا كان الغالب أنها ستصير إلى دار إسلام (٩/ ٨٠) رقم ١٧٩٠٤ .

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٥٥٧) .

(٣) **إثم الأريسيين** : هم الخدم والخول ، يعني لصده إياهم عن الدين . أي عليك مثل إثمهم . النهاية في غريب الحديث (١ / ٤٨) .

(٤) رواه البخاري في صحيحه ، ك بدء الوحي ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ، رقم (٧) . ومسلم في صحيحه ، ك الجهاد والسير ، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ، رقم (١٧٧٣) .

وقال ﷺ :«**يَا عَدِيُّ بْنَ حَاتِمٍ أَسْلِمْ تَسْلَمْ**» ثَلَاثًا ، قَالَ : قُلْتُ : إِنِّي عَلَى دِينٍ ، قَالَ : «**أَنَا أَعْلَمُ بِدِينِكَ مِنْكَ**» ، فَقُلْتُ : أَنْتَ أَعْلَمُ بِدِينِي مِنِّي؟ قَالَ : «**نَعَمْ ، أَلَسْتَ مِنْ الرَّكُوسِيَّةِ (١) وَأَنْتَ تَأْكُلُ مِرْبَاعَ قَوْمِكَ؟**» ، قُلْتُ : بَلَى . قَالَ : «**فَإِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ لَكَ فِي دِينِكَ**» ، قَالَ : فَلَمْ يَعْدُ أَنْ قَالَهَا فَتَوَاضَعْتُ لَهَا ، فَقَالَ : «**أَمَا إِنِّي أَعْلَمُ مَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الْإِسْلَامِ ، تَقُولُ : إِنَّمَا اتَّبَعَهُ ضَعَفَةُ النَّاسِ ، وَمَنْ لَا قُوَّةَ لَهُ ، وَقَدْ رَمَتْهُمْ الْعَرَبُ ، أَتَعْرِفُ الْحِيرَةَ؟ (٢)**» ، قُلْتُ : لَمْ أَرَهَا وَقَدْ سَمِعْتُ بِهَا ، قَالَ : «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَخْرُجَ الظَّعِينَةُ (٣) مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارِ أَحَدٍ ، وَلَيَفْتَحَنَّ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ**» ، قَالَ : قُلْتُ : كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ ، قَالَ : «**نَعَمْ كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ ، وَلَيُبْذَلَنَّ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ**» ، قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ : فَهَذِهِ الظَّعِينَةُ تَخْرُجُ مِنْ الْحِيرَةِ فَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ فِي غَيْرِ جِوَارٍ ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِيمَنْ فَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكُونَنَّ الثَّالِثَةُ لِأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ قَالَهَا»(٤) .

وبهذه السياسة التي انتهجها الخلفاء ﷺ مع غير المسلمين بسط الأمن والأمان في ديار غير المسلمين ، وأحس الناس بالعدل والأمان والأمن في ظل الإسلام ، وحفظت حرية الإنسان وآدميته ، وأتيحت الفرصة أمام أهل البلاد المفتوحة لسماع

---

(١) هو دين بين النصارى والصابئين . النهاية في غريب الحديث (٣ / ٣٢٥) .

(٢) هي بكسر الحاء : البلد القديم بظهر الكوفة ، ومحلة معروفة بنيسابور . النهاية في غريب الحديث (٢/ ٨) .

(٣) **أصل الظعينة** : الراحلة التى يرحل ويظعن عليها : أي يسار . وقيل : للمرأة ظعينة ، لأنها تظعن مع الزوج حيثما ظعن ، أو لأنها تحمل على الراحلة إذا ظعنت . وقيل الظعينة : المرأة في الهودج ، ثم قيل للهودج بلا امرأة ، وللمرأة بلا هودج : ظعينة . والمراد هنا المرآة في السفر . النهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٢٦) .

(٤) رواه أحمد في مسنده ، رقم (١٧٧٩٦) .

دين الله بعد إزاحة الطواغيت التي وقفت حجر عثرة في سماع أهل بلادهم الإسلام ، ودخل كثير من الناس في دين الله أفواجا عن اقتناع بمحاسن الإسلام .

٤ـ الالتزام بأخلاق الإسلام أثناء الحرب :

كان من سياسة الخلفاء الخارجية مع الكافرين المحاربين أثناء الحرب الالتزام بأخلاق الإسلام أثناء المعركة ، فالأخلاق الفاضلة جاء بها الإسلام للتحلي بها ، وتشمل هذه الأخلاق الناس أجمعين دون التفريق بين المؤمن والكافر ، في السلم والحرب ، فلا غدر ولا خيانة ، ولا مثلة ولا نهبة ، ولا قتل للأطفال ولا الشيوخ«فتعامل الدولة الإسلامية مع غيرها من الدول أثناء الحرب لا يقل روعة عن معاملتها لهم في حالة السلم ، فالمسلمون ملتزمون دائما بآداب الإسلام في الحرب ، ومطالبون بالتزام هذه الآداب مع أعدائهم»[(١)] .

والمتأمل في سياسة الخلفاء ﷺ أثناء الحرب يجد أنها تتسم بالرحمة والرأفة ، واحترام آدمية الإنسان وكرامته ، فلا تستبيح الدمار بغير حق ، ولا تزهق الأرواح انتقاما وتشفيا ، وإنما تخضع لقيم رفيعة عالية لا تنفك عنه أثناء القتال . فلا ترويع للآمنين ولا قتل للمسالمين من النساء والصبيان ، وهذا يؤكد روعة الدين الإسلامي إذ يرحم الضعيف الذي لا يستطيع حيلة ، والأبرياء العزل ، والشيوخ ، والأطفال ، وهذا إشعار للرحمة في أبهى حللها وأروع صورها ، إنها رأفة ورحمة تشمل الجميع حتى المخالفين .

وقد بين الخلفاء ﷺ سياستهم الخارجية أثناء الحرب ، وكان مما وضحوه للجنود وللرعية وجوب الالتزام بالأخلاق الإسلامية وقت الحرب وعدم التخلي عنها . وقد ظهر هذا في خطب الخلفاء ﷺ . فهذا الصديق ﷺ بين للجنود في خطبة له جملة من آداب القتال وأخلاقه وحث الجنود على الالتزام بها . فقال : وهو يودع جيش

(١) مع العقيدة والحركة والمنهج ص١٣٧ .

أسامة بن زيد :«يا أيها الناس قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا بعيرا إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا» [(١)] .

لقد أوصى الصديق ﷺ بعدم التخريب الشامل حتى في الحروب ، فأوصى بعدم قطع شجرة أو فناء أرض ، أو قتل بهائم إلا لضرورة الأكل . إنها الحضارة . هذا هو السلام والأمن والتقدم ، هذه هي الحضارة في التعاليم الإسلامية الحربية يا أدعياء الحضارة ، هذا هو السلام يا أدعياء السلام .

وقال الصديق ﷺ في خطبة أخرى وهو يوصي الجيوش الخارجة لحروب الشام«ولا تغرقن نخلا ولا تحرقنها ، ولا تعقروا بهيمة ولا شجرة تثمر ، ولا تهدموا بيعة ، ولا تقتلوا الولدان ولا الشيوخ ، ولا النساء ، وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له» [(٢)] .

وكان الفاروق ﷺ عند عقد الألوية يوصى الجنود ويخطبهم ويقول لهم : «بسم الله وعلى عون الله ، وامضوا بتأييد الله والنصر ، ولزوم الحق والصبر ، وقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، ثم لا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تنكلوا عند الجهاد ، ولا تقتلوا

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٢٤٦) .

(٢) سنن البيهقي الكبرى ، ك السير ، باب من اختار الكف عم القطع ، (٩/ ٨٥) رقم ١٧٩٠٤ ، . كنز العمال (٤/ ٧٩٧) رقم ١١٤٠٨ .

امرأة ، ولا هرما ولا وليدا ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان ، وعند جمة ـ المكان الذي يجتمع فيه ماؤه ـ النهضات ، وفي شن الغارات ، ولا تغلوا الغنائم ، ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا ، وأبشروا بالأرباح في البيع الذي بايعتم وذلك هو الفوز العظيم[١] .

وخطب الإمام علي ﷺ الجنود وبين لهم جملة من آداب القتال وحثهم على الالتزام بها فقال : «وإذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح ، وإذا هزمتموهم فلا تتبعوا مدبرا ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ، وإذا وصلتم إلى حال القوم فلا تهتكوا سترا»[٢] .

وأوصى أيضا : «لا تقتلوا مقبلا ولا مدبرا ولا تذففوا على جريح ولا تدخلوا دارا ومن ألقى السلاح فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن»[٣] .

ويتضح من هذه الخطب التي ألقاها الخلفاء ﷺ على الجنود قبل توجههم إلى المعارك السياسة الخارجية للدولة الإسلامية في عهد الخلفاء وقت الحرب . فقد بين الخلفاء جملة من آداب القتال وأخلاقه ، وأمر الخلفاء الجنود والقادة أن يلتزموا بها أثناء حربهم مع عدوهم .

وأبرز هذه الآداب مايلي :

الكف عمن أسلم حال الحرب .

النهي عن الإفساد العام والتخريب والتدمير .

النهي عن المثلة .

---

(١) كنز العمال (٥/ ٨٨٥) رقم ١٤١٩٩ .

(٢) جمهرة خطب العرب (١/ ٣٠٥) .

(٣) سنن البيهقي الكبرى ، ك قتال أهل البغي ، باب أهل البغي إذا فاءوا لم يتبع مدبرهم ولم يقتل أسيرهم ، (٨/ ١٨١) برقم ١٦٥٢٤ . كنز العمال (٤/ ٨٠٢) برقم ١١٤٢٤ .

النهي عن قتل النساء والصبيان والعباد والشيوخ .

النهي عن الخيانة .

النهي عن الغدر .

النهي عن الاعتداء وظلم الأعداء .

النهي عن الإجهاز على الجريح .

تنزيه الجهاد عن الأغراض الدنيوية .

فنهى الخلفاء الجنود عن الإفساد في الأرض والتخريب ، وذلك لخير الإنسانية ونفعها ، ممتثلين قول الله تعالى : ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] . خائفين من أن يدخلوا في الذين قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥] .

*****